روضة الحكايات!!
(٦)

شَغَلَهُ العلمُ فلم يتزوَّج!!

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

النّسب هو العلم... والتقىٰ!!

ركَّز خطيبُ الجمعةِ في المَسجدِ الكَبيرِ علىٰ فِكْرةِ النَسبِ والعَملِ، وضَرَبَ بعضَ الأمثلةِ، واستَشْهَدَ ببعضِ الآياتِ القرآنية، والأحاديثِ النبوية، من ذلك قولُ الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

[الحجرات: ١٣].

وقال الرسولُ ﷺ ـ فيما رواه الإمام أحمدُ في المُسْنَدِ ـ: « لا فَضْلَ لعربيٍّ علىٰ أَعْجَمِيٍّ إلا بالتقوىٰ ».

وبالتالي، فالإسلامُ لا يُعَوِّلُ كثيراً علىٰ مسألةِ

الأنسابِ ، ولا علىٰ مسألةِ العُنْصُرِ والجِنْسِ ، ولا يُؤْمِنُ بالتفاخُرِ بالآباءِ والأجداد و...

إنما يُرَكِّزُ علىٰ الأخلاقِ والعَملِ الصالحِ ، ويَنظرُ إلىٰ مِقْدارِ انفتاحِ الإنسانِ علىٰ عِبادِ الله سبحانه .

هذا في الجانِبِ النظريِّ ، أما المِثالُ الحَيُّ العَمَلي فهو ما ذَكرهُ العلماءُ القدامىٰ :

سيدُنا (سلمان الفارسي) رضيَ اللهُ عنه ، لم يَنْتَهِ نَسَبُه إلىٰ قبيلةٍ من قبائلِ قريش ، ولم يَتَّصِلْ بالرسولِ صَلَواتُ اللهِ عليه ، لا مِنْ جِهةِ الأب ولا مِنْ جِهَةِ الأم ، و..!! ومع ذلك فقد قَرَّرَ النبيُّ ﷺ أنه من أَقربِ الناسِ إليه ، وذلك حين قلَّده وِساماً رفيعاً ، جاء فيه : « سلمان منّا أهلَ البيت » .

وفي مكانٍ آخرَ ، حيث راحَ بعضُ الذين أسلموا

حديثاً ، راحوا يتفاخرون بأنسابِهم وما إلىٰ هنالك .

وأرادَ رسولُ اللهِ ﷺ تَصحيحَ الفِكْرَةِ ، فقال : « لا تقولوا سلمان الفارسي ، وإنما قولوا سلمان المحمدي » .

ويقابِلُ هذا المثالَ (أبو لهب) : وهو عمُّ الرسولِ ﷺ ، ومع تلك القَرابةِ.. وذاك النسبِ ، فقد أنزلَ اللهُ تعالىٰ فيه سورةً كاملةً تُتلىٰ إلىٰ يوم القيامة : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾

[المسد : ١-٥] .

فماذا استفادَ أبو لهبٍ من قرابتِه ونسبِه إلىٰ الرسولِ صلواتُ الله عليه؟ وماذا ضرّ (سلمان) أنه ينحدرُ من بلاد فارس؟

ورَحِمَ اللهُ الشاعرَ قال :

كانتْ مودّةُ (سلمانٍ) لهم رَحِماً
ولم تَكُنْ بينَ (نوحٍ) وابنِهِ رَحِمُ

ثم خَتَمَ الجمعةَ بقوله : وقد بَرزَ كثيرٌ من العلماء في تاريخِنا الإسلامي ، ووصلوا إلىٰ مناصِبَ عاليةٍ ، مع كونِهِمْ ليسوا عرباً ، ومنهم : الطبري ، والبخاري ، والترمذي ، وغيرهم...

* * *

بين (آمل) و.. (بغداد)!!

وحَفِظَ (قيسٌ) اسمَ الإمامِ الطبريّ ، وفي صباحِ اليوم التالي ، تَوجَّه نحو المكتبةِ العامةِ ، وراح يبحثُ فيها عن ترجمةٍ وافيةٍ عن حياةِ ذلك العَلَم ، وبقيَ حتىٰ المساء ، ولما عاد إلىٰ بيته عَرَضَ ما كتبَه عن حياةِ الطبري علىٰ أمّه ـ وهي المختصّةُ في التاريخ ـ فنقّحَتْ له ذلك ، وهذّبتْه ، وشَجّعتْه علىٰ أن يُلقيَ ما كتبه في إحدىٰ سهراتِ المعهد ، وبالفعل كان ذلك ، وكان مما قاله :

الإمامُ الطبريّ ، هو محمد بن جرير ، وُلِدَ في مدينةِ (آمل) من بلاد (فارس) وذلك في سنة (٢٢٤هـ) ، وكعادةِ القدماءِ فقد اصطحَبَهُ والدُه

إلىٰ أماكنِ تَحفيظِ الأولادِ كِتابَ الله تعالىٰ ، فأَبدعَ الطبريّ في الحِفْظِ والإتقانِ والفَهْمِ.. ثم اعتنىٰ بعلومِ الحديث الشريفِ ، فحَفِظَ وأَتقنَ ، وبَدَتْ ملامحُ ذكائه.. حتىٰ حَسَدَهُ بعضُ أقرانِه ، ولما كَبِرَ قليلاً باشَرَ رحلتَه العلميةَ إلىٰ المدنِ المجاورةِ ، لا من أجلِ الدنيا ، إنما من أجل طَلَبِ العلمِ ، فقرأ علىٰ علمائها الحديثَ والتاريخَ والتفسيرَ واللغةَ ، ثم تَوجَّهَ إلىٰ عاصمةِ الخلافةِ الإسلاميةِ بغداد ، وذلك بهدفِ الالتقاءِ بالإمام ابن حنبل ، لكنَّ الله شاءَ أن لا يكونَ ذلك اللقاء ، فمات الإمامُ قبل أن يَصِلَ الطبريُّ إليها... ، وهكذا تَنقَّلَ في العراقِ من مدينة إلىٰ أخرىٰ ، وذلك بهدَفِ التعلّم والتعليم .

ثم يَمَّمَ وجهَهُ شَطْرَ دمشق الشام ، ثم إلىٰ مصر ، ثم إلى طَبَرِسْتان ، ثم عاد إلىٰ بغدادَ ، فاستقرَّ بها.. وذاعَ صِيتُه ، وانقطعَ للعلمِ والتعليمِ ، حتىٰ إنه لم يتزوجْ طيلةَ حياتِه ، وذلك

بسببِ زُهدِه في الحياةِ ، ونَهَمِهِ العِلْميِّ ، وانشغالِه عن الأمورِ الثانية...

وبقي في ذلك حتىٰ جاءَه الأجَلُ ، وهو بذلك يَسيرُ وَفْقَ تعاليمِ رسولِ الله ﷺ : « اطلُبوا العِلْمَ من المَهْدِ إلىٰ اللحد » .

أو قولِه صلواتُ اللهِ عليه : « مَنْ جاءه أَجَلُه ، وهو يطلبُ العلمَ ، لقيَ اللهَ ولم يَكُنْ بينه وبين النبيين إلا درجةُ النبوّةِ » .

* * *

أجل! لقد ماتتْ الهِمَم!!

تابع (قيس) الحكايةَ قائلاً :

ووهبَ اللهُ سبحانه الطبريَّ مواهِبَ وصفاتٍ رائعةً ، منها : نُبوغُه وذكاؤه ، وحِفْظُه السريع المُتْقَنُ ، وصِفاتٌ خُلُقيةٌ حميدةٌ ، كالورعِ والزهدِ ، والعِفّةِ والإباءِ ، والتواضُعِ والعفوِ ونحو ذلك .

لذلك يُعَدُّ موسوعةً متنقّلةً ، ففي مجالاتِ التفسير جَمَعَ الكثيرَ الكثيرَ ، وكَتَبَ كتابَه الرائعَ (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) وعَدَّهُ العلماءُ بحقٍّ أصلاً لبقيةِ المفسرين ، وقيل عن الطبري : شيخ المفسرين .

ورَحِمَ اللهُ السيوطيَّ عندما سُئل : فأيُّ التفاسيرِ

تُرْشِدُ إليه ، وتأمُرُ الناظرَ أن يُعَوِّلَ عليه؟ أجاب : تفسير الإمام أبي جعفر الطبري ، والذي أَجمعَ العلماءُ المُعتبرونَ علىٰ أنه لم يؤلّفْ في التفسيرِ مثلُه!

ولا عَجَبَ في ذلك ، فالطبريُّ قد أُوتي نشاطاً وهمّةً تجاهَ تحصيلِ العلومِ وبثِّها مما لم يَنَلْهُ إلا القليلون من البشرِ ، بدليلِ هذه الحادثةِ التي أوردَها صاحبُ (تاريخ بغداد) وملخّصُها ما يلي :

عن ابن عقيل الورّاق قال : قال الإمامُ الطبريُّ لأصحابِه ذاتَ يومٍ :

أَتَنْشَطُون لتفسيرِ القرآن؟

قالوا : كَمْ يكونُ قَدْرُه؟

قال : ثلاثون ألفَ ورقةٍ!

فقالوا : هذا مما يُفني الأعمارَ قبل تَمامِه... ،

فاضطُرَّ الطبريُّ إلىٰ اختصارِه في نحوِ ثلاثةِ آلاف ورقة .

ثم قال : تَنْشَطونَ لتاريخِ العالَمِ ، مِنْ آدمَ إلىٰ وقتِنا هذا؟

قالوا : كَمْ قَدْرُه؟

فَذَكَرَ نحواً مما ذَكَرَ في التفسير ، فأجابوه بِمِثْلِ ذلك .

فقال : ماتَتِ الهِمَمُ ، فاختصرَهُ في نحوٍ مما اختصرَ التفسير!!!

أما في مجالاتِ الفقهِ ، فقد كَتَبَ عدّةَ كتبٍ ، أهمُّها كتابُه الضَّخْمُ (اختلاف الفقهاء) وهو يزيد علىٰ ثلاثةِ آلافِ ورقة ، أي ما يُقاربُ حَجْمَ التفسير ، و...!!

أما في مجالاتِ التاريخِ ، فقد أَرَّخَ الطبريّ وصَنّفَ كتباً كثيرة ، أهمّها كتابه : (تاريخ الأمم

والملوك) ، ويتضمَّنُ تاريخَ العالم ، من بَدْءِ الخليقةِ إلىٰ سنة (٣٠٢هـ) ، وحَجْمُه يزيد علىٰ خمسةِ آلافِ ورقة!!

وفي مجالاتِ علومِ الحديثِ ، فقد صَنَّفَ كتباً كثيرة ، أهمُّها كتابُه (تهذيب الآثار) ، والذي سارَ فيه علىٰ خطَّةِ بَحْثٍ لم يَسْبِقْهُ إليها أَحَدٌ أبداً .

هـذا ، إضـافـة إلـىٰ مـا كتبـه فـي مجـالات : القراءات ، وأصول الدين ، وعلوم الأخلاق ، ونحو ذلك... ، فأيُّ هِمّةٍ تُجاري هِمَّةَ الإمام الطبري؟!

* * *

﴿ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

ثم خَتَمَ (قيس) كلمتَه بتوجيهٍ رائعٍ للحضورِ ، قال فيه :

يا أحبابَنا الكرامَ! هذا نَموذَجٌ من تاريخِنا السامِقِ ، وما ذكرْتُه ليس من بابِ التسليةِ ، إنما هو من بابِ الاعتبارِ والاتّعاظِ ، مصداق ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١] .

فما نُريدُ أن نَخْرُجَ منه في هذه العُجالةِ هو أن العِلْمَ وحدَه هو الذي يُخَلِّدُ ذِكْرَ الإنسان بعد مَوتِه ، وهو الذي يَرفعُ مَقامَه في الدنيا والآخرة ، مصداق ذلك قول الله تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ

أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة : ١١] .

وفَرْقٌ كبيرٌ بين الجهلة ـ ولو مَلَكوا الأموالَ الطائلَة ـ وبين طُلابِ العلم ، قال الله تعالىٰ : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر : ٩] .

فلماذا لا نَجْعَلُ مِنْ تَراجِمِ حياةِ أولئكم الأفذاذِ مَشاعِلَ تُنير لنا سبيلَ الحياة؟ ولماذا نَلْهَثُ وراءَ أناسٍ تافهينَ ، لم يُقَدِّموا للبشرية ـ ولا حتىٰ لأنفسِهم ـ قليلاً من الخَيرِ أو كثيراً ونتركَ أمثالَ الطبري في زوايا التاريخِ؟

وأينَ ضاعَتْ هِمَمُ الشبابِ والفَتَياتِ؟ ولماذا لا نُوَجِّهُ تلكَ الهِمَمَ إلىٰ ما هو نافعٌ ومُفيدٌ... ورحم الله القائل :

فَتَشَبَّهوا إنْ لم تكونوا مِثْلَهُمْ

إنّ التَّشَبُّهَ بالكِرامِ فلاحُ

لنْ تَستطيعَ لأمرِ الله تعقيباً!!

أيها الأحبّة!

وبَعْدَ مُضْيِّ ستةٍ وثمانين عاماً في سبيلِ تَحصيلِ ونَشْرِ العلوم ، حيث لم يأخُذْ الطبري من الدنيا إلا العِلْمَ.. والعلم فقط ، وبعد مضي هذه الأعوامِ في بغدادَ أَسْلَمَ الروحَ إلىٰ بارئها.. فحَزِنَ عليه المسلمون... ، وقيل فيه الشّعرُ والنثر... ، فرَحِمَه اللهُ رحمةً واسعةً ، وأسْكَنَهُ فَسيحَ جِنانِه ، ونَفَعَنا اللهُ بعلومِه... ، ، وآخرُ دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *